يجب أن نحبَّ المكان الذي نعيش فيه وأن نصلِّي من أجله

حديثٌ سادسٌ حول القدَّاس الإلهي – الجزء الأول

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

فلنُتابع دراسة نَصِّ القدَّاس الإلهيّ. في المرَّة الأخيرة، تكلَّمنا على الطِّلبة التي تتضمَّن صلاةً من أجل رئيس الكهنة والكهنة والشمامسة، وكلِّ رتبةٍ مقدَّسةٍ [من الإكليروس]، والشعب كلّه. ردًّا على هذه الطلبة ترتِّل الجوقة: "يا ربُّ ارحم!"، وبعدها يُعلن الشمَّاس قائلًا: "من أجل هذه المدينة وجميع الأديرة والمدن والقرى والمؤمنين السَّاكنين فيها، إلى الربِّ نطلب".

عبَّرَ أحد قدِّيسي القرن الثاني بشكلٍ جميلٍ عن رأيه في المسيحيِّين (اسمه مجهولٌ حتّى الآن)، وذلك في رسالةٍ وجَّهها إلى شخصٍ يدعى ديونيسيوس، قال فيها: "المسيحيُّون غرباء عن كلِّ شيءٍ في العالم، لكنَّهم، في الوقت عينه، يُصَلُّون بمحبّةٍ من أجل كلِّ شيء حولهم – من أجل المدينة والبلد الذي يعيشون فيه". ومن خلال صلواتهم، يجتذبون برَكة الله لتحُلَّ على أيِّ مكانٍ يوجَدون فيه.

تُصلِّي الكنيسة "من أجل هذه المدينة، وجميع المدُن" حيث يتمُّ الاِحتفال بالقدَّاس الإلهيّ. وفي سياق هذه الطِّلبة، تشمل كلمة "المدينة" كلَّ ما فيها: أي المكان، والأبنية، والسكَّان، مع طريقة عَيشهم. تكشف هذه الطلبة ميزة الكنيسة والمبدأ الأخلاقيَّ الذي تغرسه فينا، وهو ألَّا نكون غير مبالين بالمكان الذي نعيش فيه. هذا يعني أنَّه علينا ألَّا نكون غير مبالين بما إذا كان كلُّ شيءٍ يجري على ما يُرام في بيتنا ومدينتنا والعالم أجمع. ينبغي أن نهتمَّ بذلك، وأن نرغب في أن يكون كلُّ شيءٍ على ما يرام في مدينتنا، وأن تحلَّ عليها بركة الله، ويسود فيها القانون والازدهار، ويكون سُكّانها سعداء.

فكِّروا في روايةِ سفر التكوين عن سدوم وعمورة. ارتدَّ سكَّان هاتين المدينتين وتحوَّلوا عن الله بسبب كثرة خطاياهم، حارمين أنفسَهم من ستر النِّعمة الإلهية، ممّا جلبَ كارثةً مروِّعةً على مدُنهم. وقبل دمار سدوم وعمورة بالكبريت والنار، جرت المحادثة الشهيرة بين الله وإبراهيم البارّ. سأل إبراهيمُ الله: "إذا بقيَ في المدينة مئة بارٍّ، فهل تدمِّرها؟". فأجاب الله: "لا، إذا وُجِدَ مئة بارٍّ، فإنِّي لأجلِ المئة لا أدمِّر المدينة".

أدرك إبراهيم أنَّه اقترح عددًا كبيرًا جدًّا، فقال:

- وإذا كان هناك خمسون؟

- إذا وُجِدَ خمسون، فلن أدمِّر المدينة لأجل الخمسين.

- سامحني، وإذا كانوا خمسةً وعشرين؟

وخفَّض إبراهيم العدد مرّاتٍ عدَّة: "وإذا كان هنالك عشرون؟ خمسة عشر؟ عشرة؟". ولكن، كما نعلم، لم يكنْ هناك حتَّى عشرة أبرارٍ في سدوم وعمورة.

إنَّها لَمحادثةٌ مذهلة! ماذا تعلِّمُنا؟ تُرينا أنَّ الأبرار هم كنايةٌ عن أوعيةٍ لبرَكات الله. يجتذبون النعمة الإلهيَّة إلى المكان الذي يعيشون فيه، وبفضل ذلك، يتقدَّس المكان ويحفظُه الله. عندما تسكن نعمة الله فينا وتسترنا، تأخذ جميع ظروف حياتنا منعطفًا أفضل، بلا شكّ. وبالطبع، هذا لا يعني أنَّ سكّان المناطق التي تقع فيها نكباتٌ، وكوارث طبيعيَّة، وزلازل، وما شابه ذلك، هم خطأةٌ أو لا يُصلُّون من أجل مدينتهم. فثمّة العديد من المدن المقدَّسة التي كثيرًا ما وقعت فيها زلازل وحرائق وكوارث أخرى مدمِّرة.

إذًا، نحن المسيحيِّين ملزَمون بالصَّلاة من أجل مدينتنا والسُّلطات التي فيها، بغضِّ النظر عمَّا إذا كُنّا نحبُّهم أم لا، وإذا كانوا مُنتسبين إلى الحزب الذي نحبُّه أم لا. يجب علينا أن نصلِّي من أجل قادتِنا الذين هم رأس الدَّولة والسُّلطة العامَّة. فهؤلاء يحتاجون إلى استنارةٍ من الله، وإلى معونةٍ إلهيَّةٍ، ليقوموا بأعمالٍ صالحةٍ لخير الناس والبلاد.

هذا هو المبدأ الأخلاقيُّ الذي تغرسه الكنيسة فينا. لا يمكنك القول: "هذه المدينة ليست مسقط رأسي، ولن أصلِّي من أجلها"، أو "لا أحبُّ هذه المدينة –لمَ يجب عليَّ أن أصلِّي من أجلها؟ فلتتدمَّر تمامًا!– لا يهمُّني الأمر مُطلقًا". بما أنَّنا نعيش هنا، فإنّنا نصلِّي من أجل هذا المكان. نحبُّه بقدر ما نحبُّ بيتنا، وبقدر ما نحبُّ كلَّ شيءٍ حولنا. ولا نحبُّ مدينتنا فحسب، بل كلَّ مدينةٍ وبلد. يجب أن تتَّسع محبَّتنا لتشمل كلَّ مكانٍ على وجه الأرض، كلَّ موضعٍ من مواضع سيادة الربِّ (راجع مزمور 102:22). ما إنْ ندرك أنَّ العالم الذي نعيش فيه هو خليقة الله وأنَّ الله أبدعه بشكلٍ رائعٍ وجميلٍ جدًّا، راغبًا في أن يُظهِرَ لنا محبَّته، عندها سنُحبُّ هذا العالم، سنُحبُّ مدينتنا وكلَّ شيءٍ فيها، وسنُصلِّي من أجل هذا كلِّه. يجب أن ينمِّي الإنسان في داخله

حسَّ المحبَّة هذا. فذاك يجعله أكثر قُربًا وموَدَّةً تجاه كلِّ ما يجري حوله، ولا يدعُه يبقى غير مبالٍ بما يجري في مدينته ومَوطنه والعالم أجمع.

عندما لا يعود الإنسان يبالي بأيِّ شيءٍ حوله، يصبحُ بالتدريج غيرَ مبالٍ بنفسه. ثمّ يبدأ بالتراجع روحيًّا. هذا هو السبب في أنَّنا نجد اليوم كثيرين يعانون بسبب إدمان الكحول أو المخدِّرات. يبدأ الأمر بكون هؤلاء غير مبالين بغُرَفِهم الخاصة. تدخلُ الغرفة فتجدُ المصباح مقلوبًا رأسًا على عقب، وفردة حذاءٍ مرميَّةً على رفِّ الكتب والثانية قد وقعَت في مكانٍ آخر... يبدأ الأمر من هنا. إذا أردتَ أن تعرف إذا كان كلُّ شيءٍ يسير على ما يُرام مع أحدٍ ما – عقليًّا ونفسيًّا وحتّى روحيًّا – انظر أين يعيش. مهما بدا الأمر غريبًا، يمكنك أن تعرف كلَّ شيءٍ عن الإنسان من خلال منزله. إذا كنتَ غير مبالٍ بمنزلك، فهذا مؤشّرٌ سيّئٌ، وهو يعني أنَّه قد أصابكَ خطبٌ ما، إلّا إذا كنتَ ناسكًا عظيمًا كنُسَّاك الصحراء الذين، بداعي العمل الرُّوحيّ، قد أهملوا كلَّ شيءٍ عمومًا. ولكن لم يَصِلْ أيٌّ منَّا إلى درجةٍ مماثلةٍ من الرُّوحانيَّة. إذًا، لا تعود هذه اللامبالاة علينا بالخير. وبالطبع، أنا لا أقول إنَّه من الجيّد أن يكون المرء مهووسًا من الصباح إلى المساء، لأيّامٍ متواصلة، بغسلِ وتنظيف شيءٍ ما في منزله والصُّراخ على الناس لئلّا يجرُؤوا على الدَّوس على الأرضيَّة التي نظَّفها توًّا. ليس هذا ما نتحدَّث عنه الآن.

يمكنني أن أؤكِّد لكم أنَّ جميع القدّيسين المعاصرين الذين عرفتُهم كانوا أناسًا مُنظَّمين إلى أبعد الحدود. عاش العديد منهم في أكواخٍ فقيرةٍ مُزرية، في فقرٍ مُدقع -لا يمكن حتّى وصفُ فقرهم- لكنّهم كانوا مُرتَّبين جدًّا.

أتذكَّر شيخنا الدَّائم الذِّكر يوسف الفاتوبيذي. كان إنسانًا بسيطًا وغير متعلِّم. كان حكيمًا، وفاضلًا، وقدِّيسًا، وأمضى العديد من السنوات مع الشيخ [القدّيس] يوسف الهدوئيِّ في الكهوف. ومع ذلك، عندما كنتَ تدخل إلى قلّايته كنتَ تجِدُ كلَّ شيءٍ مرتَّبًا في مكانه دائمًا. كان السكّين الصغير الذي استخدمه لقصّ الورق وفتح المغلَّفات موجودًا في مكانه دائمًا. هنا قلمٌ وهناك بعض الأوراق. كان من المستبعَد أن تدخل قلّايته وتجد فوضى. كان الشيخ يعلم أين يوجد كلُّ غرضٍ، وكان يمدُّ يده في الظلام من دون إضاءة (لم يكن لدينا كهرباء بل كنّا نستخدم مصابيح الكاز)، ويمسك بالسكّين لأنّه كان دائمًا في المكان عينه. لم يكن

هنا أو هناك، بل في المكان عينه. وسنة بعد سنة، ولسنواتٍ كثيرة، ظلَّ كلُّ شيء في مكانه. ما زال بإمكاني رؤية قلّاية الشيخ أمام ناظريّ: ثيابه، أغطيته، حذاءه.. كانت الفردتان دومًا بجوار سريره، وكنتَ تجدُ السجّادة الصغيرة التي كان يقوم بالسجدات عليها ملفوفةً وموضوعةً في زاوية القلّاية.

في إحدى المرّات، عندما كنتُ لا أزال مبتدئًا، وكنتُ مسؤولًا عن الاهتمام بالمضافة كعمل طاعة، زارَنا بعض الحُجّاج، وكانوا مجموعةً من الشُّبَّان. أتى الشيخ يوسف إلى المضافة، وألقى نظرةً إلى إحدى الغرفتَين حيث أمضى الشبَّان ليلتهم – أوه! وجد أغطيةً وشراشفَ ووسائدَ مبعثرةً في كلّ مكانٍ في الغرفة. قال لنا الشيخ لاحقًا: "كيف يمكن للمرء أن يقتني نعمة الله في حين أنَّه لا يستطيع حتَّى أن يرتِّب سريره؟ هل وقعت معركةٌ هنا في اللَّيلة الماضية؟". كان هناك ثقبٌ في الغطاء، وكان أحدُ الخُفَّين مرميًّا هنا والآخرُ هناك –"معقول! لقد أمضوا فقط ليلةً واحدةً هنا...". كان الشيخ يوسف مرتَّبًا جدًّا.

كثيرًا ما رافقتُه في أسفاره. في إحدى المرَّات ذهبنا إلى روسيّا حيث أُرسِلَ الشيخ يوسف كمُمثِّلٍ عن دير فاتوبيذي. نزلنا في فندقٍ، في غرفةٍ واحدةٍ كبيرة. كلَّ صباحٍ، كان الشيخ يبدأ بالتنظيف -ينظّف الأطباق والمرحاض- كان ينظِّف كلَّ شيء. قلتُ له:

- أيُّها الشيخ، ستأتي العاملات ويقمْن بهذا كلِّه
- كيف؟ هل سنترك الفوضى وراءنا؟

غادرنا الفندق تاركين الغرفة نظيفةً تمامًا، جاهزةً لاستقبال النُّزلاء الذين بعدنا. ما مِن مرَّةٍ لم ينهض فيها الشيخ ويرتّب كلِّ شيء.

كان القدِّيس باييسيوس مثله. لم يملك شيئًا في قلّايته الفقيرة. عندما كان يريد كتابة شيءٍ ما، كان يجلس على كرسيٍّ صغيرٍ ويضع لوحًا على حضنه، ويأخذ قلمًا وورقًا من كوَّةٍ في الجدار ويكتب على اللَّوح. كان سريره أشبه بنَعش. وعِوضًا عن المصباح كانت لديه شمعة. كان يعيش في فقرٍ مدقع، لكنَّه، في الوقت عينه، كان شخصًا مرتَّبًا. ما كنتَ لِتجد عنده فوضى.

لذلك، إذا وجدتُم شيئًا من الفوضى في غرفة أطفالكم، ينبغي أن تولوا ذلك اهتمامًا. يجب أن تدركوا أنَّ شيئًا ما ليس على ما يُرام في عالمهم الرّوحي. طبعًا، قد يعود الأمر إلى شيءٍ من اللامبالاةِ والبلادة: فالأطفال معتادون أن تقوم أمُّهم بكلِّ شيءٍ من أجلهم، حتى جلب الحليب إليهم وهم في أسرَّتهم (وهي تخطئ بفعل ذلك، لأنَّها بذلك تؤذيهم!). يجب ألّا تفعلوا ذلك، بل علِّموا أولادكم أن يقوموا بأنفسهم بترتيب أسرَّتهم، والاغتسال، وتسريح شعرهم، وتناول فطورهم، وهلمَّ جرًّا. ولكنَّ الأمر الجوهري هو أنَّه علينا جميعًا أن نتعلَّم أن نحبَّ المكان الذي نعيش فيه، حتّى ولو لم يكنْ مكانَ إقامتنا الدائم: اليوم أقيم هنا في هذا المكان، وغدًا سأكون في مكانٍ آخر. إنَّ كوني سأغادر هذا المكان غدًا لا يعني أنَّه يمكنني تخريب كلِّ شيءٍ هنا. إذًا، الفوضى الخارجيّة واللامبالاة وقلّة الاحترام تجاه مكانِ سكن المرء، هي كلّها علامات فوضى روحيَّة؛ إنّها علاماتٌ على أنَّ المرء يعاني من صعوباتٍ روحيَّةٍ داخليَّة. حين يكون كلُّ شيءٍ منظَّمًا تنظيمًا حسَنًا في نفسك، سيكون لديك ترتيبٌ خارجيٌّ أيضًا. لا يمكن أن يكون الأمر مُغايرًا.

أحِبُّوا مدينتكم وصلُّوا من أجلها، متمنِّين الخير لسُكَّانها. افرحوا عندما يحصل شيءٌ جيِّدٌ في مدينتكم، لا تكونوا غير مبالين بمكان إقامتكم. حين تهتمُّون لأصغر الأمور وأبسطها، ستكونون حينها منتبهين للأمور الأكبر والأكثر أهميَّة. حين تفرحون، على سبيل المثال، عند بناء مستشفى جديد، وطريقٍ جديدٍ جميل، حين تحبّون مدينتكم، ستبدؤون بشكلٍ طبيعيٍّ بمحبّة جميع المدن الأخرى، وستفرحون وتشكرون الله على كلِّ مكانٍ على وجه الأرض. وستصبح حياتكم عندها ممتعةً ومبهجة، وليست مملَّة أو خاملة.

أحد عوارض زمننا الحالي هو "فقدان الشهيَّة" الروحيّة. يتجلَّى فقدان الشهيّة الجسديّ (anorexia) بفقدان المرء للشَّهية، فلا يعود يرغب في تناول أيِّ شيءٍ على الإطلاق. أمَّا في فقدان الشهيّة العقليّ والروحيّ، فلا يعود شيءٌ يهمُّ المرء أو يلمسُه أو يشغلُه أو يُسعِدُه؛ يصبح غير مبالٍ تمامًا بأيِّ شيءٍ، سواء أكان شيئًا جيِّدًا له أم سيِّئًا.

لدى كثيرين اليوم دافعٌ لتدمير كلّ ما حولهم. يرغب بعض الناس علنًا في ألّا تسير الأمور على نحوٍ جيِّدٍ في مدينتهم. فلنقُلْ مثلًا إنَّهم يجِدون جدارًا أبيض نظيفًا في مكانٍ ما – سيقوم هؤلاء حتمًا بكتابة شتائم وأمورٍ

غير لائقةٍ على كامل الجدار. لماذا؟ فقط لتخريب الجدار. حتّى إنَّ هناك مقولةٌ تقول: "الجدار الأبيض هو قطعة ورقٍ بالنسبة إلى الأحمق".

يشهد هذا كلُّه على نقص روح الشُّكران، أو انعدامها، هذه الروح التي تنمِّيها الكنيسة في قلوبنا بمعونة القدَّاس الإلهيّ. فالقدَّاس الإلهي يحتضن كلَّ شيء -الأمور الروحيَّة الأسمى، ملكوت السموات الذي قيلَ عنه: "لأنّ ليس لنا هنا مدينةٌ باقية، لكنّنا نطلبُ العتيدة" (عبرانيّين 13 : 14)- وكذلك موطننا الحاليّ ومدينتنا ومكان إقامتنا الذي نكرِّمه ونحبّه، ونباركه ونقدِّسه، وندافع عنه ونصلّي من أجله. انظروا، عندما خلق الله الإنسان لم يضعه في قفْر، بل أسكنه في فردوس عدنٍ الجميل - ليعمله ويحفظه (تكوين 2 : 15). فقط بعد سقوط آدم وحوّاء، ظهر الشَّوك والحسَك، والأراضي القاحلة التي يعمل فيها الإنسان بصعوبةٍ بالغةٍ وبعرق جبينه.

إذًا، تتكشَّف حقيقة الإنسان الروحيَّة من خلال الأمور البسيطة اليوميَّة: كيف يتصرَّف تجاه بيته، وثيابه، ومظهره الخارجيّ، والأشياء المُحيطة به؛ كيف يُكلِّم الآخرين وكيف يتعامل مع عائلته في البيت أو مع زملائه في العمل.

أتذكّر ما قاله أحدُ شيوخ الجبل المقدّس ذات مرّة: "حين تستخدم أداةً لحِرفةٍ يدوية، عليك أن تشكرها حين تنتهي من العمل بها". أرى أنّكم تبتسمون بعد سماع ما قاله. ولكن، ما الذي يعنيه كلام الشيخ؟ هو يدلّ على أنَّه كان يُقدِّر كلَّ شيءٍ حوله تقديرًا شديدًا. أخبرَنا شيخنا يوسف [الفاتوبيذي] أنَّه حين كان يعمل في حفر أختام خبز التقدمة، ما إن كان يجلس ويلتقط السكّين للعمل، كان يشعر فورًا بنعمةٍ عظيمة، وكانت الصلاة الذهنيّة تبدأ بالعمل في داخله من جرّاء هذه النعمة. كلُّ ما كان عليه فعله هو التقاط أداة... وكان ذلك يحدث معه لأنّه كان يتعامل مع أدواته بانتباهٍ واحترام. اعتنى بتلك الأدوات وكان يسنُّها وينظّفها ويُعيدُها إلى مكانها في الدُّرج.

أتذكّر شابًّا مسيحيًّا تقيًّا جدًّا ذا ميلٍ نسكيّ، كان يعمل في كافيتيريا. كان يقدّم للزبائن القهوة والعصير وأشياء أخرى، وكانت لديه صينيّةٌ يحملها في كلّ مكان. أَحَبَّ هذه الصينيّة كثيرًا حتّى إنَّه عندما أراد تغيير عمله، طلب من رئيس عمله السابق أن يعطيه إيّاها. كانت تلك الصينيّة بسيطةً ورخيصة، ربمّا تساوي دولارين فقط

اليوم. سألتُ هذا الشابّ: "لِمَ أنتَ بحاجةٍ إليها؟". فأجابني: "إنّها تعني لي الكثير. بفضلِها وجدتُ نعمة الله".

هذا ما أخبرني إيّاه، وأنا أصدّقه بكلّ تأكيد؛ فبِفضل هذه الأداة التي استخدمها لخدمة الآخرين بمحبّة، وجدَ النعمة، وحسَّنَ من نفسه، ونجح وتقدَّم روحيًّا.

ما كان شيءٌ من هذا ليحصل مع هذا الشابّ لو أنّه تعامل مع هذه الصينيّة بازدراءٍ أو كراهية، كما يفعل بعض الأولاد في المدرسة: يمزّقون دفاترهم وكتبهم، ويركلون حقائبهم، ويكسرون النوافذ والمقاعد. ما معنى سلوكٍ كهذا؟ إنَّه يدلّ على حالةِ نفوسهم: ليست لدى هؤلاء الأطفال علاقةٌ بالأشياء المحيطة بهم كما لو أنّها مقدّسة – مدرستهم وصفّهم ومعلّمتهم. إنَّه لأمرٌ سيّئٌ ألّا يحبّ الإنسان العمل الذي يقوم به والأشياء التي يستخدمها ويملكها.

عندما كنتُ أعيش في الإسقيط الجديد في الجبل المقدّس، كانت الخِياطة عملَ الطاعة الذي قمتُ به عدّة سنواتٍ. كان أحد الرهبان يتولّى الطبخ وآخر مسؤولًا عن المضافة، وأنا تولّيتُ الخياطة. كنتُ أعمل على ماكينة خياطة ذات دوّاسة قدم. وكما قلتُ، لم تكن لدينا كهرباء (لا تفكّروا في شراء ماكينة خياطة لي في المطرانيّة، فلا وقت لديّ للخياطة الآن مطلقًا!). ماذا أقول؟ ما إن كنتُ أجلس لأعمل على ماكينة الخياطة، كانت ينتابني شعورٌ رائع! لا توجد كلماتٌ تشرح أو تصِفُ الإحساس الذي كان يملأ نفسي حينها! الخياطة هي عملٌ رائعٌ حين تجري بصلاةٍ ومحبّة. أحببنا أدواتنا وأشياءنا. شيوخنا علّمونا ذلك. لم يكن لدينا موقفٌ كهذا في البداية [كرهبانٍ مبتدئين]، عندما كنّا قد أتينا توًّا من العالم [إلى الجبل المقدّس]. وبدا احترام الأشياء أمرًا مضحِكًا لنا، لأنّنا كنّا غير مبالين بشيء. ثمّ رأينا آباءنا وشيوخنا والنسَّاك، رأينا كم كان موقفهم طيّبًا وكم أولوا من محبّةٍ واحترامٍ لأدواتهم وأغراضهم، حتّى ولو كانت مجرّد كيسٍ أو صندوق.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2022). “We Must Love and Pray for the Place Where We Live. Sixth Talk on the Divine Liturgy, Part 1.” *OrthoChristian*.